# صورة عن بيئة المسلمين فى عهد الاستعمار فى الهند

*الدكتور عبد الكبير محسن

## Abstract

In this article ,the effects of British Raj over Hindustan have been taken into considration.

The Prominant differences leading to the changes of social life of the resiidents of Indo PaK IN GENERAL and the Muslims in particuler which brought about tremendus changess in the history and traditions of the masses .Although this topic is debateable yet some of the prominent features have been discussed.

أهم الأحداث فى تاريخ مسلمى الهند سيطرة الاستعمار الإنجليزى على بلاد شبه القارة وبذلك تقلّب الدهر على المسلمين وأصابتهم نكبة سياسية لم ير التاريخ مثيلها إلا نادراً ، فقد ظهرت فالية الأفاعى بوفاة الملك أورنگزيب فى أوائل القرن الثامن عشر الميلادى الذى كان آخر إمبراطور مغولى قوى وعهده كان أزهىٰ عهود المسلمين فى الهند حيث خضعت الهند بقضها وقضيضها لأول مرة للحكومة الإسلامية وهذه كانت قمة نهضة المسلمين التى لم تدم طويلا وبدأ زوالهم وهذا الملك عُمِّر طويلا ولما وافى أجله كان ابن تسعين سنة وخلف من بعده خلف لم يستطيعوا إبقاء هذه العظمة وابتليت الهند بظروف قاسية تُشابه ظروف الأندلس المسلمة أيام انقراضها واقتسمت إلى إمارات استقلت بنفسها وأبت البقاء فى الخضوع للحكم المغولى المركزى فنتيجةً لذلك سهل على الإنجليز القضاء عليها واحدة تلو الأخرىٰ ، بدؤوا أستاذ اللغة العربية بكلية أصغر مال الحكومية ,راولپندى، باكستانبنجال واحتلوها إثر حرب بلاسى سنة ١٧٥٧ م ثم خضعت لهم مملكة ميسور التى كانت أكبر سدٍّ أمام سيل الاستعمار الإنجليزى بقيادة السلطان فتح على خان ٹيبو الذى استشهد فى آخر معركته ضد الإنجليز سنة ١٧٩٩ م ، خضعت لهم السند سنة ١٨٥٦م ثم فى السنة القادمة سقطت على أيديهم دهلى عاصمة حكومات الأسر المسلمة منذ ثمان مأئة سنة ومن هنا لحق المسلمين تقلُّبٌ جذرى انتهى بتراجعهم من مجالات الارتقاء والتقدم وبدأ ابتلاؤهم العظيم الذى فرق جمعهم وأذهب ريحهم و كسر شوكتهم وضاقت بهم أرض الهند بما رحبت فاختار عدد كبير منهم المهاجَرَة إلى أفغانستان ثم منها إلى وسط

*أستاذ اللغة العربية بكلية أصغر مال الحكومية . راولپندى

آسيا (١) كما أن بعضهم لجأ إلى القبائل المسلمة الساكنة في المنطقة الحرة في شمال باكستان الحالية وأخذوا يحرضون القبائل على المقاومة للاحتلال كما فعل الزعيم الكبير الشيخ أحمد والشيخ اسماعيل الدهلوى وبعد شهادتهما قرب بالا كوٹ سار على نهجهم الشيخ ولايت على فإنه هاجر مع ركب كبير من أهله و أقاربه وتلامذته وتمركز في هذه المنطقة وسعى في مجال الجهاد مدة من الزمن (٢)

وكان ابتلاء مسلمي بنجال أشد و أعظم لمساهمتهم في حركة جهادية قام بها الشيخ أحمد وخلفاؤه وقد ألقى الدكتور وليم هنتر أضواء على تلكم الأحداث في كتابه(our Indian Muslims) ومع هذه البلوى الفاجئة المظلة على بقاع الهند قام كثير من زعماء المسلمين وقدموا جهودا فعالة لإبقاء وجود المسلمين في هذه الديار أثناء هذا الزلزال ومع أخطار كثيرة فإنهم لم يرضوا بالمسكنة والذل بل استمروا في أخذ مناكب القوم وتحذيرهم من مضار وأخطار سَبَّبها الاحتلال فلم تخمد شعلة الإقدام و التحرك ولم تتوقف المساعي العلمية والجهود الأدبية بل واجهوا هذا الدور الجديد القاسي بكل مصابرة ومرابطة حتى وفقوا في أهدافهم النبيلة ونجحت جهودهم في إبقاء وجود المسلمين في الهند وهذا عكس ما نال إخوانهم في الأندلس الذين لم ينتهبوا لأخطار راقبة لهم حتى آخر لحظة فاضطروا للانسحاب من أرض الأندلس العزيزة ، ففي الأسطر الآتية نعطي إشارات حول أهم الاتجاهات والتيارات التي تعرفت عليها الهند في أيام الاحتلال الإنجليزى انتهز مبشروا النصارى هذه الفرصة فانتشروا في أكناف الهند وأطرافها لنشر النصرانية وكانت بداية هذه المحاولات في عهد الإمبراطور المغولي جلال الدين محمد أكبر حيث احتل البرتكاليون بعض مناطق الهند الساحلية مثل مالا بار و معبر وجاء عدة قسيسي النصارى إلى بلاط هذا الملك لمناظرة علماء الإسلام (٣) ثم كثر ورودهم من سنة ١٨١٣ م بعد أن قبل البارليمان البريطانوى اقتراحا قدمه أحد أعضائه (واليرفورس) وهم بذلك سمحوا مَنْ يريد الذهاب إلى الهند من مبلغي النصرانية لنشر دينهم (٤) فلبى دعوتهم كثيرٌ من جماعات التبشير وانتشرت في مختلف جوانب الهند وقسموها فيما بينهم لمهمة التبشير وتبليغ النصرانية واتخذوا عدة وسائل لنيل هدفهم مثل مساعدة مالية لمن يقبل النصرانية من سكان البلاد وبناء المدارس ومراكز التربية والمستشفيات كما أنهم أصدروا مجلات تنشر عقائدهم وكانت هناك فرقتان منهم : فرقة لتبليغ الهنادكة وفرقة لتبليغ المسلمين ، وقد شوهوا التاريخ الإسلامي في الهند

واتهموا الملوك المسلمين بالظلم والعداوة للهنادكة ورموهم بالتعصب ضدهم وإضاعة الثروة الهندية وصرفها فى بناء القصور والحدائق واتصفوهم بضيق الفكر (٥) وكان القرآن الكريم هدفهم الأول حيث أرادوا تشويهه وأوردوا الشبهات ، ألف حاكم الأقاليم المتحدة وليم مور كتابا باسم (Life Of Muhmmad) الذى أحدث ضجةً فى ساحة الهند فقام عديد من علماء الإسلام للرد على مطاعن بَثَّها الرجل فى كتابه ، منهم سر سيد أحمد خان الذى ألف كتابا بعنوان: خطبات أحمدية وطالب ابنه سيد محمود بترجمته إلى الإنجليزية وطبعه وكان ذلك ردا قويا على كتاب وليم مور (٦) ومنهم الشيخ جراغ على (م ١٨٩٥م) و ألف كتابا باسم (أعظم الكلام فى ارتقاء الإسلام) ورد به على القسيس الذى ادعى أن الإسلام مانع عن التقدم و الرقى (٧) ومن هؤلاء الشيخ محمد على مونگيرى فإنه أصدر مجلة من كانفور بعنوان: منشورِ محمدى (٨) ومنهم مولانا أبو الكلام آزاد الذى خاض عدة معارک كلامية ضدهم والشيخ ثناء الله امرتسرى صاحب كتاب (جواباتِ نصارى) والشيخ شبلى نعمانى والشيخ رحمت على و الشيخ محمد قاسم نانوتوى و آل حسن ودكتور وزير على و آخرون ، وهم بفضل جهودهم ضيقوا على المبشرين أرض الهند ولم يمكنوهم من نشر مذهبهم بسهولة وهكذا وقوا المسلمين من الوقوع فى شبكة الاستعمار ، وقد رد دكتور لانتر على مطاعن دكتور وليم مور وذلک بعدة محاضرات ألقاها بهذا الصدد (٩)

وهذآ من أهم الاتجاهات والتيارات التى عرفت الهند بسبب الاستعمار الأجنبى ، ومنها أن أهل بلاد الهند تعرفوا على الأوروبا باتجاهاتها واكتشافاتها وصناعاتها التى جرّت لهم التفوق على أقوام العالم وهم بذلک استطاعوا إقلاع حكومة شبه القارة المسلمة التى كانت تعد من أقوى حكومات العالم والتى لم تسقط أمام طوفان التاتار مع أنه غشى أكثر البلاد الإسلامية كقطع الليل المظلم ، فمن هنا تطورت الأفكار وتغير مجرى الأحداث المعاصرة فوُجِد من المسلمين وغيرهم من سكان البلاد إقبال هائل على مظاهر جديدة من ثقافة أقوام أوروبية وحضارتهم وهم بهذا بدأوا قبول حقيقة جديدة والتعرف على المخترعات الحديثة والتخلص من دائرة الجمود التى كان المسلمون بصفة خاصة منحصرين فيها فانقسم القوم إلى فرقتين ووُجدت بينهما منافسة ، فرقة تؤيد التجديد وتريد من أبناء ملتهم الاعتزال عن القيود القديمة وهى لذا تختار الوسائل العصرية وتغير النظام التقليدى لتربية الأجيال الناشئة بإنشاء مدارس تأخذ حظها فى مقرراتها من علوم وفنون عصرية أيضا حتى ينالوا التقرب

من القوة الحاكمة ما دامت أنها أصبحت حقيقة قائمة بذاتها ومن أشهر زعماء هذه الفرقة التجديدية سر سيد أحمد خان وقد بذل جهودا جبارة فى حَثِّ المسلمين على اختيار التجديد والتقرب إلى قوة حاكمة وسعى لذلك بمؤلفاته ومقالاته التى حاول فيها التطبيق بين الإسلام والاكتشافات العلمية الجديدة وأصدر مجلته باسم تهذيب الأخلاق لتحقيق هذا الغرض وله آراء تفسيرية تَجَدَّد فيها والتى جعلته عُرْضةً للنقد الفاحش من العلماء المخالفين لفكرته ونهجه حتى رموه بالكفر مع أن معظم هذه الآراء لقيت قبولا عند بعض العلماء من داخل الهند وخارجها أمثال العلامة رشيد رضا صاحب المنار الذى وافقه فى رأيه فى مسئلة النسخ وإنكار وجود خارجى للملائكة (١٠) وللسيد أحمد خان فضل كبير فى إزالة تهمة البغى والعدوان التى قُذف بها المسلمون أثناء ثورة ١٨٥٧م وهم بذلك تعرضوا لمشاكل ومحن جعلت وجودهم فى خطر كما أنه أنشأ كلية لتدريس العلوم العصرية وتعليم اللغة الإنجليزية التى كانت فى تلك الأيام أكبر وسيلة للاستفادة من جديد ، ومن الذين رأوا رأيه بصدد التقليد والتجديد الشيخ عبيدالله السندى وقد هاجر من الهند وساح فى كثير من الدول وشاهد الأقوام الأروبية فحاول بعد العودة إلى الهند الجمع بين معالم العصر الجديد وتقاليد العصر القديم ودعا إلى الأخذ والاستفادة من علوم العصر دون ترك الثقافة القديمة وخاصة فى مجال الاقتصاد الذى سبب الارتقاء البارز لدول الأروبا

أما مخالفو هذه الحركة التجديدية فكثيرون وهم أهل الدين ورجال الدعوة الإسلامية على النمط القديم وهم رفضوا إلا التمسك بتقاليد وصلت إليهم من أسلافهم فلم يجددوا مقررات مدارسهم فظلت تعيش مع مواد فَقدت أهميتها فى العصر الحديث ورفض هؤلاء كل جديد ، طيّبَه وخبيثَه دون التميز بينهما وقد أفتى هؤلاء بتحريم تعلم اللغة الإنجليزية باعتبارها لغه الاستعمار وشددوا فى ذلك خوفا من أن تتسرب أضرار ثقافة الإنجليز إلى مَنْ يتعلمها من المسلمين ونتيجةً لذا تَوسَّع الخليج بين الفرقتين وانقسم القوم فى طائفتين آخذٌ كُلٌّ منهما بطرف الحبل وما زال هذا الانقسام يعلن وجوده مع أن الاستعمار انتهى دوره منذ زمان.

وكان ثمة رأى ثالث يدعو إلى التوازن والاعتدال فى مسألة التجديد والتقليد وصاحبه شاعر ومفكر القوم العلامة محمد إقبال الذى طالب اجتناب الوقوع فى جدليات ومناقشات غير مجدية وغير ضرورية والتى ليست لها صلة بالمجتمع وقد التزم الشاعر الفيلسوف بطريق الاعتدال فلم يخالف

التقليد بسبب أنه قديم ولم يكب على التجديد إكبابا على غيرحذر بل دعا إلى الأخذ من كليهما ما يكون نافعا للحياة الفردية والاجتماعية وقد قام بمطالعة الوجهات والأفكار والتيارات المختلفة وقارن بينها ثم شق طريقا حسبه فى مصالح الأمة الإسلامية وسلك سبيلا يمتاز بالاعتدال وعدم التفريط والإفراط ومن آثار الاحتلال أيضاً حركات ظهرت لتشويه شخصية المسلمين وهوية دينهم الذى يدينونه فمنها حركة (بهكتى أو ما سُمِّى ب : شدهى) قام بها الهندوس بهدف إرجاع إخوانهم الهنادكة الذين اعتنقوا الإسلام إلى دينهم الأصلى أى الديانة الهندوسية وما كانت هذه أول محاولة لهم بل إنهم سعوا لتحقيق هذا الهدف كلما وجدوا الفرصة سانحة وها هم وافوا أيام الاحتلال الإنجليزى فرصة أخرى حسبوها ذهبية فأرادوا أن ينتهزوها وقد كان المسلمون يعانون من مشاكل قاسية أحاطت بهم من كل جانب فأخذوا ببذل جهود كلامية وتحريرية فى مجال التشكيك و إيراد الشبهات فى القرآن والإسلام وصاحبه عليه الصلاة و السلام فألف أحدهم كتاب : ستيارتهه بركاش و وجَّهَ اعتراضات كثيرة حسب زعمه إلى القرآن الكريم فبرز علماء الإسلام لمقاومة هذه الحركة بنفس الخطوة فألفوا وناظروا وخاضوا معارك جدلية عنيفة ضدهم كأمثال الشيخ ثناء الله امرتسرى الذى الف كتاب : حق بركاش رداً على الكتاب المذكور ولما صدر من أحد خبثائهم كتاب آخر فى بث المطاعن حول شخصية الرسول باسم : رنگيلا رسول ، ألف الشيخ كتابا باسم : مقدس رسول كما أنه ألف كتابا آخر بهذا الصدد وهو كتاب الرحمن فى جواب : الله ويد هے يا قرآن؟ (١١)

ولما اجترأ بعض لئام الهنادكة على شتم النبى ﷺ بلسانه قام بضعة من شبان المسلمين وجادوا بأنفسهم وصَلَّوْهم نار جهنم فنظرا إلى تلكم التضحيات خمدت نار حقدهم وبغضهم ، الصراع بين أتباع الهندوسية وأتباع الإسلام بقى موجودا وقد اشتد الآن فى بعض مناطق دولة الهند

والحركة الأخرى التى هدفت إلى تشتيت كلمة المسلمين وكان الاستعمار وراء ها هى حركة القاديانية وهى ادعاء النبوة قام بها مرزا غلام أحمد القادياني وتَسَبَّبَ لإضلال بعض الحدثان من المسلمين وقد وجد دعما من الاستعمار لأنهم خافوا من استمرار حركة جهادية فى مقاومتهم منذ بداية عهدهم فى الهند فاختاروا هذا الرجل لِيُفتى بتحريم الجهاد بنبوته الجديدة الكاذبة وقد فعل حيث أعلن بأن الهند دار الإسلام كما أنه أراد تضعيف عقيدة الإسلام فى الأفغان الذين اشتهروا بالترسيخ والتصلب فى عقيدتهم الإسلامية فأرسل دعاته إلى أفغانستان لتفريق جمع المسلمين هناك ولكن الله أنعم على

حكومتها فانتبهت لأخطارهم ومضارهم فقضت عليهم بقتلهم واحدا تلو الآخر دون أن يتمكنوا فى أرضهم ، أما فى الهند فلعلماء المسلمين فضل كل الفضل فى الرد على ترهات وادعاء ات هؤلاء القوم فإنهم تَعاقبوهم فى كل واد وقعدوا لهم كل مرصد واجتهدوا فى ذلك حق الاجتهاد حتى لم يجد القوم منجاة وأخيرا لقى سعيهم نجاحا بالغا حيث اتفق البارليمان الباكستانى على القرار المقدم إليه والذى ينص رسميا على كونهم من أقليات باكستان الكافرة نتيجة حركة عرفت ب : تحريكِ ختم نبوت سنة ١٩٧٤ م وبذلك نجا الشعب الباكستانى وغيره من أخطارهم لأنهم كانوا من قبل يتسترون بالتقية ويخادعون عامة المسلمين باسم الإسلام.

هذه بعض أهم ملامح وتيارات اتسمت بها بيئة شبه القارة التى عاشها المسلمون فى عهد الاستعمار الإنجليزى فهى بيئة ذات أطراف وجوانب ما أكثر ما حَلَّ بها من تغيرات وما أبدع ما طرأ عليها من تطورات وتاريخها السياسى والعلمى مملوء بالتطورات كل آن ومصابٌ بالتبدل كل زمن فإذن كانت هذه تختلف عن بيئة عاشها المسلمون من أبناء اللغة العربية لأنهم حافظوا على كيانهم وثقافتهم وتقاليدهم التى ورثوها من قدمائهم أما سكان الهند فصادفوا عدة حضارات وثقافات فهم إذن ترعرعوا فى أحضان بلاد كانت مهد مختلف الملل وشتى النحل والتى تعرفت على لغات كثيرة واستقبلت اتجاهات متنوعة فكل عهد فيها كان مختلفا عما سبقه وكل زمان قادم كا ن يزيد فى ثروتها ويطور تراثها فإنها أرض رحبة آوَتْ كل من لجأ إليها من أقوام وطوائف وخفضت جناح ذلٍ ورحمةٍ لكل من حَلَّ بها من ملة أو ثقافة أو لغة ففيها صلاحية الإذابة والتدميج وتاريخها لمختلف عصورها يصدق ما نقول وشاهد له .

## الهوامش

(۱) خالد شبير احمد : تاريخ محاسبه قاديانيت ، ص : ۴۰۷ ، وكثير منهم هاجر إلى مكة والمدينة

(۲) محمد ميان دهلوی : علمائے هند كا شاندار ماضی ، ص : ۱۱/۳

(۳) شيخ محمد اكرام : رود كوثر، ص : ۱۳۷

(۴) سيد محمد الحسن : سيرتِ مولانا محمد علی مونگيری، ص : ۷

(۵) أيضاً، ص : ۴۳

(۶) شيخ محمد اكرام : موج كوثر، ص : ۱۶۴

(۷) أيضاً ، ص : ۱۶۶

(۸) سيد محمد الحسن، المرجع السابق، ص : ۴۸

(۹) شيخ محمد اكرام : موج كوثر ، ص : ۱۸۵

(۱۰) أيضاً، ص : ۱۶۲

(۱۱) خالد شبير احمد، المرجع السابق، ص : ۲۶۹، و ۲۷۰

## المراجع

(۱) تاريخ محاسبه قاديانيت ، خالد شبير احمد ، كاروان ادب ملتان ۱۹۸۷

(۲) رود كوثر، شيخ محمد اكرام ، اداره ثقافت اسلاميه لاهور ۱۹۷۵

(۳) سيرتِ مولانا محمد علی مونگيری، سيد محمد الحسن ، لاهور

(۴) علمائے هند كا شاندار ماضی ، محمد ميان دهلوی ، لاهور

(۵) موج كوثر، شيخ محمد اكرام ، طبع نمبر: ۱۴ ، ۱۹۸۷